

أدبية النص عند ميخائيل ريفاتير

الأستاذة : فرطاس نعيمة

قسم الأدب العربي

كلية الآداب و اللغات

جامعة محمد خيضر -بسكرة (الجزائر)

Résumé :

Cet article à pour objectif d'exposer une notion critique moderne concernant l'intertextualité, nous allons nous concentrer sur une de ses figures qui est Michael Riffaterre qui a surpris les spécialistes du domaine par sa correspondance entre l'intertextualité et la littérarité en grandissant son champs jusqu'à la transtextualité, de même il nous fait distinguer entre l'intertextualité et l'intertexte comme résultat d'une confusion entre la majorité des lecteurs

ملخص:

يحاول هذا المقال أن يتعرض لمفهوم نقدي حديث، تتناوله النقاد والدارسون، وأدلى كل منهم بدلوه فيه، ألا وهو مفهوم (التناص)، فمنذ أن بشرت به الناقدة الفرنسية ذات الأصول البلغارية جوليا كريستيفا (1941) في بداية الستينات وهو يتحرك بطلاقة، إذ تمت مقارنته من عدة نواحي (السيمياء، اللسانيات، الشعرية، الأسلوبية...)، إلا أننا سنركز على هذا الفرع الأخير وعلى واحد من أهم أعلامه م. ريفاتير، الذي فاجأ المنشغلين بهذا الحقل بآراء عدت رئيسية عنده، فهو مثلاً: يطابق بين التناص والأدبية ويجعله فضاضاً إلى درجة أنه يشمل مصطلحاً آخر هو مصطلح (المتعاليات النصية)، الذي اجترحه الشعري الفرنسي جيرار جينيت وخصه بكتاب مستقل، كما أنه يلجأ إلى التفريق بين التناص والمتناص نتيجة للاضطراب الحاصل في إدراك معناهما لدى كثير من القراء، وبما أن القارئ هو الكفيل بإدراك التقاطعات والكشف عن التداخلات الحاصلة بين النصوص، فإن ريفاتير يذهب نتيجة لذلك إلى تقسيم القراءة إلى قسمين: قراءة خطية، وقراءة ارتجاعية.

تقديم:

مichael RIFATTERRE (1924 - 2004) أستاذ جامعي، حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة 1955، كرس حياته لدراسة الأدب، ليس بالمعنى المعتاد؛ أي التحليل المدرسي للأعمال الفنية في ضوء تاريخ استقبالها، أو من حيث جمالياتها، أو عن دورها في تنمية الإيديولوجيات.

لم يختار ريفاتير دراسة الأدب كمدونة Corpus ، أو لفترة زمنية، لكن درس بالأحرى أدبية الأدب، وكيفية تغيير تاريخ الأدب بنظريته، بمعنى وصف العمليات، التي يصبح بموجبها أي نص عملا فنيا.

وقد حملت منشوراته التعليمية والعلمية على تفسير تأثير النص، واستمرارية العمل الأدبي على الرغم من التطورات التي حدثت للذوق، ودور القارئ خصوصا فيما يتعلق بالجانب الذي يظهر تحكمه في الآليات التي تساعد على التفسير إلى درجة أن رأى الكاتب يميل إلى أن يصبح مسقطا (عديم الأهمية).

وقد قدم مساهمات كبيرة لدراسة تلك المناطق، التي كانت نموذجا للعمل على التصور الجمالي للنص في كتابه " مقالات في الأسلوبية البنوية 1971 Essays of structural stylistics"، و "إنتاج النص Text production". وإن دراسته لحدود التفسير أدت به إلى إيجاد صعوبة في اعتبار أن القراءة مفتاح للفهم (نذكر على سبيل المثال القراءة الآلية للسرياليين)، وفي كتابه " Fictional truth 90" طور فكرة وجود قواعد للأدب.

اهتم بالأشكال الشعرية للكتابة الرومانسية، وقصيدة النثر وبروست Proust. وهو عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون و العلوم، و سبق و أن شغل

منصب أستاذ في جامعة أكسفورد، كما شغل منصب مدير لمدرسة النقد والنظرية⁽¹⁾.

غير أن هذا لم يمنعه من ارتياد حقول أخرى ظلت لفترة طويلة حكرًا على وجوه فرنسية معروفة، والمساهمة فيها بأراء قيمة وجديدة، فحين تناول على سبيل المثال دراسة العلاقات التي تنشأ بين النصوص، نجده قد قدّم إسهامات جديدة في هذا المضمار، تتم عن تبلور مصطلحات هذا الميدان في ذهنه، إذ لم تعد المقاربة عنده مجرد كشف ورصد للتعلاقات النصية الحادثة بين النصوص، بل إن الظاهرة عنده أعمق بكثير. فما الإسهامات الجديدة التي ميزت جهازه المفاهيمي؟

من التناص إلى الأدبية: سيرورة وتطور:

اهتم م. ريفاتير بداية في أبحاثه حول التناص Intertextualité بظاهرة التلميح Allusion. التي اعتبرها مجالًا لدراسته في كتابه "إنتاج النص"، ويرى كاظم جهاد وآخرون، أن هناك انتقادات وجهت له، كونه اهتم اهتمامًا مبالغًا بهذا الملمح التناصي، الذي رآه يمتد ليشمل كل شيء، فقال: "...يرى التلميح في كل شيء، ولا يميز ما كان القدامى يدعون به "التلميح الحي" و "التلميح الميت"، أي بين التلميح الذي ينبثق في ذهن القارئ ويضيء معرفته للنص، وهذا الذي من البعد بحيث لا يعدو أن يكون تلاقيًا هينا واتفاقًا بين مفردتين أو فكرتين"⁽²⁾.

كما أنه حين قدم تصوره حول فهمه (للتناص)، جعله يمتد بشكل فضفاض ليشمل كل ما يسميه جيرار جينيت (1930) Gérard GENETTE (متعاليات نصية Transtextualité) يطرح هذا الأخير رأي ريفاتير في كتابه "أطراس Palimpsestes"، فيقول مناقشا إياه: "يكتب مثلاً (أي ريفاتير)، المتناص

L'intertexte، هو أن يلحظ القارئ علاقات بين مؤلف ومؤلفات أخرى، سبقته أو عاصرته، ذهاباً إلى حد يطابق فيه التناص في هدفه (كما أفعل ذلك بالمتعاليات النصية) بالأدبية Litterarité نفسها"⁽³⁾.

وبهذا الطرح الذي تحدوه الجراً؛ أي مطابقة التناص بالأدبية، يصبح "التناص هو (...) الآلية الخاصة لقراءة الأدبية. وهي وحدها في الواقع تنتج الدلالة، في حين أن القراءة الخطية Linéaire المشتركة مع النصوص الأدبية وغير الأدبية لا تنتج سوى المعنى"⁽⁴⁾.

ومن خلال هاته التعاريف المنتقاة، ينص ج. جينيت على أن هذا الطرح واسع بشكل كبير، ولذا يجب أن "يصحب مبدئياً بشرط فعلي، لأن العلاقات المدروسة من طرف ريفاتير هي دائماً من نظام البنيات الصغرى micro-structure للدلالة الأسلوبية sémanctico-stylistique، في سلم الجملة، لمقطع أو نص وجيز شعري عموماً. ف "الأثر La trace" التناصي حسب ريفاتير، هو إيجابي مثل التلميح الذي ينتمي لصنف الصورة المجزأة أكثر مما ينتمي إلى العمل الأدبي بالنظر إلى بنيته الإجمالية كحقل لتلاؤم العلاقات"⁽⁵⁾.

وقد حاول ريفاتير أن يطبق التناص على نص سردي، فمنذ مقال (1982) حول الروائي الإنجليزي ترولوب Trollope، نجد غالباً الاتجاه لإثبات أن تعريفه يتطابق مع الأدبية -التي تضع كقاعدة لها الخصائص المميزة للشعرية المعاصرة- وإن هذه النظرية يجب أن تطبق على الأدب بكل اختصار، وفي مقال آخر قريب العهد (ارغامات تناصية 1997 Contraintes intertextuelles) يتكلم ريفاتير منذ البداية عن تعريف أدبية الأدب، باستخدام كلي لعلم مصطلحات متأت من أبحاث سابقة عن الشعرية Poétique، فهو

ككل الذين يهتمون بالنظرية الأدبية، يسعى إلى تطبيق نظريته على نصوص شعرية⁽⁶⁾.

فقد عرض مسبقا في كتابه "محاولات في الأسلوبية البنيوية" مقارنة من نوع ظاهراتي للتنظيم الظاهر لنص السطح، وتهدف مؤلفاته الأخيرة إلى فهم إجمالي - ملفوظ وتلفظ - للغة الشعرية، قائم على اللامرجعية والتناص، باعتباره شكلانيا جيدا، يؤدي بطيبة خاطر طابعا هزليا⁽⁷⁾.

ونتيجة للخلط السائد بين مصطلحي (متناص Intertexte، وتناص)، نجد م. ريفاتير، يناقش هذه المسألة مفرقا بينهما في مقال بعنوان "المتناص المجهول 1981 L'intertexte inconnu"، فالمصطلح الأول يعني العملية التي نقوم بها عندما نقرب عددا من النصوص إلى نص معين نكون بصدد دراسته أو تأمله، وهي عملية مألوفة في النقد التاريخي، ومعروفة بأنها دراسة لتاريخ المؤثرات الأدبية أو ما يسمى بالبحث عن المنابع مما لم يعد له أهمية كبيرة في وقتنا الحالي. كما أنها مألوفة في البحوث الفلسفية الحديثة المنتمية إلى علم الموضوعات Thématologie⁽⁸⁾.

يقول ل. سومفيل متعرضا لهذه الجزئية: "إن تصور النص كمحول من متناص هو تصوره كذروة ألعاب اللغة، أي كنص أدبي، وإن التحاليل المحسوسة التي أجراها م. ريفاتير على نصوص هي أحيانا مشهورة جدا. استلهمها من نظرية هي في الوقت نفسه دقيقة ومتأسكة، مما جدد الإدراك الذي بوسعنا حتى الآن"⁽⁹⁾.

وباعتباره بنيويا يطبق تعاليم هذا المنهج بوفاء، حدد "م. ريفاتير مستويين مختلفين - لكن متجانسين homologables - لتنظيم النص الأدبي. وقد قبض عليه خارج سوره لقبوله بقراءة خطية تتقدم مسجلة ما يرضي أو يخيب

انتظارها. فالقارئ المتمكن في مجال اللغة هو أيضا متمكن بالتحديد (يجب افتراض ذلك) في المجال الأدبي. وهكذا فلجوء المؤلف لنحو من نوع خاص، ولكلمات مولدة ولتراكيب تعتبر كبلغة (مجازات Tropes، صور)،...الخ. لا يمنع ذلك من متابعة الفهم في مجرى قراءة تنعت بأنها استكشافية⁽¹⁰⁾.

أما النوع الثاني من أنواع القراءة، أي "المسماة بالارتجاعية Rétroactive (في مقابل الخطية) أو التأويلية herméneutique فتتسبب الانحرافات أو اللاموافقات للنحو الملاحظة إلى إنتاجية بنية لانمطية تقع في مستوى عال للخطاب"⁽¹¹⁾.

وقد ذهب الكثيرون إلى تبني وجهة النظر السابقة، فهذه إيف فايلوبوا Eve FEUILLEBOIS نَعُدُّ التناص عملية غير محدودة وحركية نصية، تستند إلى مجموع الكتابات والخطابات المحيطة بالنص، فتقول مستفيدة من أفكار م. ريفاتير السابقة: "تستطيع بالمثل أن نعتبر التناص ليس كعنصر أنتج عن طريق الكتابة، لكن كأثر للقراءة : وعلى القارئ أن يعرف ويعين المتناص. فعند ريفاتير التناص هو إدراك القارئ لوجود علاقات، بين مؤلف ومؤلفات أخرى، سواء التي سبقته أو عاصرتة، إنه يدركها كضرورة، لأنه إذا كان المتناص غير مدرك، فإن طبيعة النص ذاتها بها قصور، غير أن المتناص يتطور تاريخيا: فالذاكرة، ومعرفة القراء تتغير عبر الأجيال، وتظهر النصوص لتصبح غير واضحة أو لتفقد دلالتها بما أن تناصها يصبح غير معتما"⁽¹²⁾.

لكن تحديد التناص هكذا أو بالقراءة التي نقوم بها يؤدي إلى مزالق: إنها ذاتية المقاربات المنجزة، فالمناص قد لا يتعرف عليه لأن القارئ لم يعرف كيف يكتشفه أو لن يتمكن أبدا من التعرف عليه، لكن يمكنه أيضا، وبالعكس، أن يكون مكتفا، لأن ذاكرة القارئ العارف، المثقف جدا، قد يبالغ في الاستعانة بها،

فيتجه إلى إسقاط مرجعياته الخاصة على النص فيعتبر كظاهرة تناص إجبارية ما لعله يكون تذكرًا احتماليًا جدًا⁽¹³⁾، وبهذا يتحول التناص عند م. ريفاتير إلى نوع من الترهيب أو استعراض للعضلات الفكرية، أو مجرد ترف ذهني مغرق في التعقيد والتلغيز.

الهوامش و المراجع

(*)- الأدبية: المصطلح بالروسية Litératurnost، وهو مفتاح في خطاب ومفردات الشكلايين الروس Russian Formalism، كتب جاكوبسون Jakobson سنة 1921، أن موضوع الدراسة في الأدب ليس الأدب إنما الأدبية؛ أي مجموع الخصائص التي تجعل من عمل ما عملاً أدبياً،
 {See: David MACEY: Dictionary of critical theory, Penguin Books, London, 2000, PP. 231|232}.
 ومن أشهر أعلامهم أيضاً: شكولوفسكي، فينوغرادوف، طوماتشوفسكي، إخنباوم، تينيانوف، وقد نادوا اتماماً للمقولة السابقة بأنه يجب على الدارس في مجال الأدب أن يركز على النص لا الناص، بمعنى إهمال ما هو خارجي عنه ك : حياة الأديب، ظروفه السياسية و الاجتماعية، والعوامل المؤثرة في فكره، وما إلى ذلك، فكل هذه الأمور من اختصاص علوم أخرى، كعلم الاجتماع، أو علم النفس، والتاريخ، وكأنها عملية قسمة مهام وأدوار، فلا يجب أن نسند للأدب ما ليس له.

(www.mirage.com¹)- See : Micheal RIFATTERRE in

(2)- كاظم جهاد: أدونيس منتحلاً (دراسة في الإستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة يسبقها: ما هو التناص)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1993، ص 37-38.

(3)- Gérard GENETTE : Palimpsestes (la littérature au second degré), Edition du Seuil, Collection Essais, Paris, 1982, P09.

(4)- Ibid.

(5)- Ibid.

(6)- Voir : John Kopkins : « la théorie sémiotique littéraire de Micheal RIFATTERRE : matrice, intertexte et interprétant », Cnara, Récit et éthique cahiers du narratologie, in www.google.com.

(7)- Voir : Léon SOMVILLE : « Intertextualité », in méthodes du texte (Introduction aux études littéraires), ed. Duculot, Paris-Gembloux, 1987, P 122.

(8)- حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط 1، 2003، ص 26.

(9)- L. SOMVILLE : Op. Cit, P 122.

(10)- Ibid, P 126.

(11)- Ibid.

(12)- Eve FEUILLEBOIS : “L’intertextualité comme méthode de critique littéraire : définition et postulats », Monde Iranien UMR 7528, Sorbonne Nouvelle, Inalco, EPME.

(13)- ناتالي ببيقي غروس: مدخل إلى التناص، تر: عبد الحميد بورايو، البليدة، الجزائر، 2004، ص 16.